قراءة في تفسير ابن كثير

سورة المجادلة

أ. أناهيد بنت عيد السميري

غفر الله لها ولوالديها

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونسأله بمنّه وكرمه أن يجعلنا من أهل القرآن، أهله وخاصته، وأن يجعل القرآن الكريم ربيعًا لقلوبنا، ونورًا لصدورنا، وجلاء لأحزاننا وهمونا، اللهم آمين.

كنا قد شرعنا بدراسة سورة المجادلة من تفسير ابن كثير، وقد مر معنا ربط هذه السورة الكريمة وما بعدها بسورة الحديد.

باختصار هذا الرابط يتضح حين نتذكر أن سورة الحديد قد حملت آية عظيمة، كما ذكر أهل العلم عنها: "إن جماع المعرفة عن الله فيها" وهو الخبر عنه -سبحانه وتعالى- أنه (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)، وهذا يظهر بشواهد كثيرة ذكرت في سورة المجادلة وما بعدها.

*وقد مر معنا أن اسم الباطن من أسماء الله العظيمة التي تجعل العبد في حال من الاستحضار الدائم لمعية الله، وهذا

الأمر سنجده جليًا واضحًا في سورة المجادلة؛ معية الله التي من آثارها: رحمة العباد، وهو -عزَّ وجلَّ-، بالناس رؤوف رحيم، كما سمعنا بهذا في سورة الحديد؛ في أول سورة الحديد أتى الخبر عنه -عزَّ وجلَّ-، في ست آيات فيها أخبار عن كماله -سبحانه وتعالى- وفي ضمنها هذه الآية أنه (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ).

ثم أخبر -عزَّ وجلَّ- عن رأفته ورحمته بالخلق لما أنزل هذا القرآن، فختم قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) بقوله: (وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ)[1] فمن آثار رأفته ورحمته بالخلق أنه -سبحانه وتعالى- قريب من خلقه، يسمعهم؛ يعني أن قربه ومعيّته لخلقه لها أنواع:

- المعيّة العامة.

- والمعية الخاصة التي ستظهر لنا في هذه السورة.

فإذًا قُربه وبطونه -عزَّ وجلَّ- لكل شيء له شواهد عظيمة، ومن شواهده ما ورد في سورة المجادلة وما بعدها.

كنا أمس مررنا بصورة مجملة على موضوع السورة، وهو: "موضوع الظِّهار" وذكرنا أن هذه المرأة أتت إلى

---

[1] () الحديد: 9.

النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- ووجهت شكواها إلى الله -سبحانه وتعالى-، وظهرت لنا شجاعة هذه المرأة وأنها قامت تدافع عن هذه الأسرة طلبًا لحقها وحق بنيها، ولم تقبل بما وقع من زوجها في حال لم يحسب فيه حسابًا لآثار فعله، فكانت هذه المرأة نموذجًا يتعلم منه نساء الأمة ورجالها: أن يحافظوا على هذه الأسرة التي هي نعمة من رب العالمين، نعمة الاجتماع في الأسرة، نعمة خصّ الله -عزَّ وجلَّ- بها بني آدم تكريمًا لهم.

وفي هذا المقام يطول الكلام، لكن هذه الآية العظيمة التي افتتحت بها السورة، ابتدأت بقوله تعالى: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ)، سمع قول هذه المرأة التي تجادل لأجل بقاء أسرتها. فما أحسن حال هذه المرأة في مجادلتها لبقاء أسرتها! وقد سمعها الله وهو -سبحانه وتعالى- الظاهر العالي فوق عرشه، وهو الباطن القريب من خلقه، سمعها وأخبرنا بسمعه لها، وهو -سبحانه وتعالى- سمعه محيط بكل الأصوات، لكن أخبرنا بسمعه لها إشارة إلى العناية بها وإلى التنويه بشأنها وإلى مدح حالها أنها اعتنت بأسرتها، ولما تصرف الزوج بطريقة لا تليق، وأقدم على ما ينثر عقد عائلته دون تبصّر ولا رويّة، كانت هي المنقذة لهذه الأسرة، فهي ممدوحة على فعلها، ممدوحة عند رب العالمين، ممدوحة عند رسوله والمؤمنين؛

لأنه بسببها نزل هذا الحكم المهم، وهو ما نسميه بـ "حكم الظّهار".

المقصد أن نتأمل في أول آية من هذه السورة ونرى شجاعة المرأة ونرى مدح رب العالمين لها ونرى يقينها برب العالمين وشكواها إليه وأخذها بالأسباب ونتيقن بصفات رب العالمين: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ)، (وَاللَّهُ يَسْمَعُ)، (إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) آمنا بالله، توكلنا على الله، وشكوانا كلها لله.

بعد هذه الآية العظيمة تأتي الآيات متتابعة من الآية الثانية إلى الآية الرابعة فيها أحكام الظّهار، نسمع الآيات أولًا:

(الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (2) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (3) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (4))

هذه الآيات أتت كالإجابة على سؤال يمكن أن يثار في النفس حين نسمع: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ) سمع استجابة لشكوى

المجادلة، فماذا نشأ عن ذلك؟ فيجاب بما فيه المخرج لهذه التي ظاهرها زوجها في هذه الآيات المباركات. وبهذا نعلم شأن مهم وهو: أن كل الأحكام التي في الأعمال لا بد أن ترتبط في نفوسنا بما لله من جلال وعظمة وجمال.

كل أحكام الشريعة تدل على كمال رب العالمين، ومحاسن هذه الشريعة -التي تظهر في أحكامها، كما تظهر في عقائدها- مما يزيدنا يقينًا، ويزيد قلوبنا تعظيمًا لرب العالمين، وطهارة من الشك، والنظر إلى محاسن الشريعة وتأمل آثار كمال الله فيها يجعلنا نزداد يقينًا، وكل من يحاول أن يشوش على هذا الشرع الكريم ويطعن فيه ويتكلم عن أن هذا الشرع الذي جاء من عند رب العالمين -الذي خلق المرأة والرجل- تحيّز للرجل وظلم المرأة، كلما تعلمتِ الشريعة كلما تطهرتِ من آثار مثل هذا الكلام على النفوس، و يا ويل من آمن بالله ثم لقيه وقلبه يشك في حكمة الله! كيف يكون هذا الإيمان؟! كيف يدعي الإنسان أنه مؤمن وهو ما عمل على تطهير قلبه من كل شك؟! ربما الإنسان المؤمن -وهنا نخص المرأة- ما شعر بأنه شاكّ، لكن أصابه غبار الأفكار، وللأفكار غبار! فيتراكم هذا الغبار في القلب، ويطول هجران الإنسان لتطهير قلبه؛ فيتراكم الغبار، حتى يجد الإنسان نفسه تائهًا ليس على

أرض صلبة، لا يدري من أين أُتي له، من أين أُصيب في إيمانه!

فنحن اليوم خاصة نتعرض للأفكار بشكل مضاعف عما كان فيمن قبلنا من الأجيال التي سبقتنا. وكما ذكرنا للأفكار غبار، الأفكار الباطلة لها غبار، حتى لو رفضناها بالإجمال، لكن قد يدخل في القلب منها شيء.

هذا الكلام نقوله حتى ندرس هذه السورة دراسة من يتأمّل في محاسن الشريعة، ويرى أن الشريعة جاءت لإكرام الإنسان ذَكرًا كان أو أنثى، وأن أهل الافتراء والظلم، أولياء الشيطان، حزب الشيطان كما سنعرف في هذه السورة، هؤلاء حريصون على ألّا تجدين في نفسك- أيتها المؤمنة- يقينًا! يفككون اليقين بأطروحات سخيفة تافهة، أقل علم يطردها، لكن حين تُترك بدون علم تتراكم وتقسو وتفقد المرأة إيمانها وتتكلم بلسان أعدائها وهي لا تشعر كيف ورّطها الشيطان، وكيف أوقعها شياطين الإنس والجن فيما لا يرضي الرحمن!

ربنا العلي العظيم على العرش استوى، أنزل هذه الآيات فابتدأها بقوله: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا).

(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ) سمع استجابة، (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ) سمع عناية، فأنزل هذه الآيات سماعًا لشكواها ورفعًا لضرّها، وسيتبين لنا بالإجمال معنى هذه الآيات. نقرؤها جملة، جملة، نذكر معناها بالإجمال، وبعد ذلك نرى كلام ابن كثير.

(الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم) قول الرجل لامرأته إذا غضب عليها: (أنتِ علي كظهر أمي) بمعنى تحريمًا على نفسه.

(مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ) ما نسائهم اللاتي ظاهروا منهنّ بأمهاتهم، المعنى: بهذا القول لن يصيروا كأمهاتهم في التحريم الأبدي، والأمر ليس على رأيهم وليس كما يريدون، فهنّ ليسوا بأمهاتهم في الحقيقة، ورب العالمين يخاطب هؤلاء المظاهرين بألّا يقلبوا الحقائق، وليعلموا بأنهم بمحاولة قلبهم للحقيقة، الحقيقة لن تنقلب (مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ).

(إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ) المقصد أن هذه الحقيقة المتفق عليها ما يكون تغييرها أمرًا سائغًا، فإن أمهاتهم في الحقيقة هن (اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ) ونسائهم لم تلدهم فلا يحرمن عليهم حرمة مؤبدة، فالأمهات لهنّ الإكرام والاحترام، والزوجات جعل الله -عزَّ وجلَّ-، مكانهنّ معلوم وحالهنّ مفهوم لكل من كان له عقل.

فالغاية من وجود هذه العلاقات شأن عظيم؛ السكن والذرية وإنجاب عباد لله ساجدين، فكيف تتحول هذه العلاقة التي لم يسمَّ غيرها: "الميثاق الغليظ" إلى علاقة لا تتحقق فيها هذه المقاصد؟! الأمهات لهن الإكرام والاحترام لذلك يقول الله -عزَّ وجلَّ-:

(وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا) هنا جملتان، الجملة الأولى أن الله -عزَّ وجلَّ- وصفهم أنهم:

(لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ)، قول تنكره العقلاء.

(وَزُورًا)، هذا وصف آخر باطل لا حقيقة له؛ لأنه يتضمن إلحاقها بالأم وهذا منافٍ لمقتضى الزوجية.

فهنا رب العالمين يوبخ هؤلاء الذين يحاولون أن يستعملوا سلطتهم في قلب الحقائق، يوبخ هذا الرجل الذي يقول منكرًا من القول، فيجعل الله -عزَّ وجلَّ-، هذا القول منكرًا وزورًا توبيخًا لهم على صنيعهم. قولًا منكرًا قبيحًا، والقبح هنا يأتي من جهة لطيفة جدًا.

لماذا هذا القول قبيح؟ لأن هذا أولًا يعرّض حرمة الأم لتخيلات شنيعة يتخيلها السامع، هي زوجة فلماذا تأتي بالكلام عن الأم في هذا الموضع؟ حين يُسمع قول المظاهر: (أنت عليّ كظهر أمي) لماذا تأتي بكلمة "الأم" وأنت في حال لا

تليق؟! فهذا كلام قبيح لما فيه من تعريض حرمة الأم لخيالات شنيعة تخطر بمخيلة السامع عندما يسمع قول المظاهر لهذه الكلمة.

كأن كلمة "المظاهرة" منكرة من هذا الوجه. فرب العالمين يقبحها لنا، (وَإِنَّهُمْ) ثم (لَيَقُولُونَ) هذا كله تأكيد الخبر بـ "إن"، و "اللام" من أجل أن يهتم الناس بشناعة هذا القول، بسبب اعتيادهم هذا القول، هم اعتادوا هذا القول، فرب العالمين أراد أن يشنّعه لهم فأنزله بمنزلة بين أن يكون منكرًا وزورًا، وهو من أفعال الجاهلية.

(وَزُورًا) لأن هذا الكلام كذب فمن أين لك أن تزوّر الحقائق؟! بعد هذا التوبيخ عطف الله -عزَّ وجلَّ-، عليه جملة تذكرنا دائمًا برحمة الله، ودائمًا رب العالمين يذكرنا برحمته؛ لأنه ممنوع اليأس من روحه، مهما أخطأ الإنسان ممنوع أن ييأس من روح الله فختم الآية بقوله:

(وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ) وهذا إشارة إلى أن الإنسان يمكن أن يخطئ، يمكن أن يقول قولًا تنكره العقلاء وزورًا باطلًا لا حقيقة له، لكن إذا تاب من هذا القول وأناب، فليعلم أنه سيجد له ربًا عفوًا غفورًا، لا يعاقبه بعد التوبة، يعفو عنه ويغفر زلَّته بسبب إقباله على ربه. المهم ألّا نيأس ويكون قلبنا مليئًا

بالأمل في رب العالمين، ونأخذ سببًا من أجل أن نحقق الأمل؛ والسبب: التوبة. وأنت تعلم أن من صفات الرب -سبحانه وتعالى- أنه:

عفو؛ يترك عقاب الشخص مع استحقاقه للعقاب.

غفور؛ يمحو الذنب وأثره، فالله -عزَّ وجلَّ- لا يعاقب على الذنب ولا يعاتب.

فهل من تائب؟ تبنا إلى الله، فنتوب طلبًا للعفو ونبذل الجهد في الإصلاح، فرب العالمين لما أخبر عن صفته (وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ) ففيها أمر من رب العالمين أن نتعرض لعفوه ومغفرته، وأن يتعرض هذا المظاهر لعفو الله ومغفرته، فكأنه يقال: (فعلكم هذا فيه قلب للحقيقة، والحقيقة لا تنقلب، وسنّة الله لا تتغيّر ولو اجتمعتم جميعًا على ذلك لن تكون زوجاتكم أمهاتكم إنما أمهاتكم هنّ مَن ولدنكم، وقولكم هذا منكر فاحش وزور وكذب؛ فتوبوا إلى الله وتعرضوا لعفوه ومغفرته).

لاحظنا أن حق هذه المرأة المعنوي رجع لها، هي قد قالت -كما سمعنا في كلام ابن كثير- إنها شكت مما حصل وإنه وقع عليها هذا الضرر، وتقول إنه قد أكل شبابها ونثرت له بطنها بالإنجاب، حتى إذا كبرت سنها وانقطع ولدها ظاهر منها! بمعنى أنها ستتضرر، هذا بالإضافة إلى الأذية النفسية

التي وقعت في كونه يعاملها بهذه المعاملة. فرب العالمين لما بين للمؤمنين حكم هذا الفعل وإرادة إضرار المرأة، بدأ أولًا -عزَّ وجلَّ-، ببيان أن هذا الفعل باطل، وأن الرجل الذي يفعل هذا الفعل -عمومًا من الإضرار بالمرأة وخصوصًا بالظّهار- قد قال منكرًا من القول وزورًا، وإن لم يتب فقد عرّض نفسه لسخط الله.

نلاحظ أن هذا أتى قبل أن يأتي الحكم إكرامًا للمرأة ورفعًا لمكانها، وإقرارًا لحقوقها وتطييبًا لخاطرها. أين في أحكام أهل هذه الأرض مثل هذا الكلام الجميل؟! أهل هذه الأرض اليوم لو أرادوا أن يأتوا بحكم في صالح المرأة، إما أن يشطوا في ذلك فيضروها من جهة أخرى، أو حتى لو أتوا بحكم ينفعها، فلن تجد في حكمهم جبرًا لخاطرها، وتأثيمًا يوجب على الطرف الثاني التوبة والاستغفار والعودة! فانظر إلى هذا الشرع وفكر فيه وانفض من القلب غبار أفكار أهل الباطل. اللهم طهر قلوبنا يا رب العالمين! ثم يأتي الحكم:

(وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا) هنا خطاب لهؤلاء الذين وقع منهم الظّهار، ومعنى (ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا) يرجعون إلى لفظ الظّهار ثانية، هذا معنى يمكن أن يكون على ظاهره، أو يعزمون على العودة إلى نسائهم

فيريدون تحليلهم بعد تحريمهم، وهذا هو الأقرب في المعنى؛ لأنه ستأتي أحكام مترتبة على ذلك.

(فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ) من أراد أن يخرج من هذا الخطأ الذي ارتكبه، قال لها: (أنتِ محرمة عليَّ)، اليوم يمكن ألا يقول لها: (أنت محرمة علي كظهر أمي)، لكن لا يطلقها، يقول: (أنتِ محرمة عليّ)، فهذه الأحكام التي ستترتب إذا أراد أن يعيدها؛ لأن الأحكام المترتبة عل الطلاق واضحة، وهنا الأحكام المترتبة على الظهار إذا أراد أن يعيدها.

نلاحظ أن (ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا) هو موطن الخلاف، ما معنى "يعودون"؟ إذا كان العود يعني أنه يريد أن يرجع يحللها ذكر الله -عزَّ وجلَّ- هذه الكفارة وأنها تكون قبل أن يتماسّا، يعني مجرد أنه عزم أن يعيدها فعليه أن يفعل هذا الفعل. ما هو الفعل؟

الحكم الأول: تحرير رقبة. وهذه الرقبة تكون مؤمنة -ذكرًا كانت أو أنثى- ولها شروطها، وهذا موضوع يطول الكلام فيه.

(مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا) يلزم الزوج أن يترك وطء المرأة حتى يكفر برقبة.

(ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ) ذلكم الحكم الذي ذكره رب العالمين (تُوعَظُونَ بِهِ) يبين لكم حكمه مع الترهيب، يعني توعظون به فترهّبون؛ بمعنى أن الأمر في مثل هذا في العلاقة مع المرأة وما يتصل بها ليس بلعبة، ليس متى ما أردت كانت زوجتك ومتى ما أردت حرمتها على نفسك!

لماذا كان الحكم عتق رقبة والرقبة تكون من أنفس الأشياء عند الإنسان؟ لأن هذا من باب التشديد؛ لأن الوعظ هو: الزجر عن الفعل الموعوظ لأجله. (تُوعَظُونَ بِهِ) يكون بمشقة، يشدد عليكم. لماذا؟ لأن العلاقة مع المرأة، الحياة الزوجية أمر مقدس في الشريعة وليس بلعب.

فأول حكم: أن تعتق رقبة لأنك -كما يذكر بعض أهل العلم- قد فعلت فعلًا عظيمًا، وهذا الفعل الذي فعلته -وهو الظّهار- قد انتهكت فيه حرمة أمك في كونك قلت هذا القول، وأيضًا أوبقت بهذا القول نفسك وأسرتك، فقد أخذت حقوق المرأة وضيعتها وضيعت حقوق الأبناء، فكأن إعتاق الرقبة يماثل أنه أخرج نفسه من القتل؛ كان سيقتل الأسرة، فكونه يعتق رقبة كأنه أعتق هذه الأسرة من الضياع لذلك ختمت هذه الآية بقوله:

(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) نلاحظ هنا خبير بما يشير إلى أنه الباطن -عزَّ وجلَّ-، وقريب من هذا المعنى أتى في سورة الحديد، قال -عزَّ وجلَّ-: (وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) في الكلام عن الإنفاق في سبيله، وهنا في الكلام حول الوقوف عند حدوده. الله خبير، ومن آثار هذه الصفة أنه مطّلع على ما في نفوس الخلق عالمًا بمقاصدهم، عالمًا بما يعالجهم ويداويهم، فكان الأمر بأن يكون أول الكفارة عتق رقبة من أجل أن يعظم الأمر في نفوسهم، فالله -عزَّ وجلَّ-، خبير بخلقه، خبير بما يصلحهم. فلا تستعجب من أن أحكامًا تأتي فيها شيء من الغلظة من أجل تربية الخلق.

الحكم الثاني:

(فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا) هنا سيظهر بوضوح كيف أنّ هذه الأحكام مشدّدة على هذا الذي ظاهَر، غير متساهلة معه؛ إذا لم يجد رقبة يعتقها، فعليه صيام شهرين متتابعين، وهذه الأحكام ليست بالاختيار وإنما عند فقد أحدهم ننتقل إلى الثانية، إذا لم يجد رقبة يصوم، وإذا كان في حالة من المرض ولا يستطيع، و"لا يستطيع" هنا ليس لأنه يتعب تعبًا عاديًا! بل "لا يستطيع" هنا مثل أنه في رمضان لا يصوم، هذا إذا ما استطاع؛ يأتي الحكم الثالث:

(فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا) يأتي بعد ذلك إطعام ستين مسكينًا، وأُخِّرَ الإطعام لأنه قد يكون من أسهل الأشياء على الناس، لذا بُدئ بالترتيب، كما هو واضح.

(ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) هذه الآية إشارة إلى أن هذا البيان أو التعليم للأحكام سيكون اختبارًا سيظهر فيه قبولكم لشرعه والانتهاء عن قول الزور الجاهلي، يقابل ذلك:

(وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ) هنا يظهر أن رب العالمين يحب من المؤمنين أن يعرفوا هذه الشريعة، ويعرفوا أن هذا الشرع الكريم لا يكون أبدًا ألعوبة! بل له حدوده، بحيث أنك تُمنَع من أن تتعدى، أو أن تقصر عنها، يعني (لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) بالتزامكم بهذه الأحكام والعمل بها. والعمل بالأحكام من الإيمان، والعمل بالأحكام يزيد الإيمان، ومن الإيمان أن تعلم أنك هنا في الدنيا لك حدود لأجل أن تصل إلى تهذيب نفسك، ثم في جنات النعيم يكون الإنسان في حال من الانطلاق، في حال من التمتع المطلق بما أنعم الله به عليه، وفي الدنيا يكون في حدود الله. يقابل هذا:

(وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) وقد ذكر هنا الكلام عن أهل الكفر لأنه لا يكون الاعتراض على أحكام الله، وإساءة الأدب معها وانتقادها، إلا من أهل الكفر. (وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) هؤلاء

الكفرة الفجرة هم الجاحدون لفرائض الله وحدوده التي بيَّنها، المتعدين على هذه الحدود.

فلا تسمع أحد يتعدى على حدود الله ويستهزئ بما أنزل الله ويحاول أن يتحايل على دين الله، منكرًا حكمة الله إلا وله من هذه الآية نصيب، فمن ثمّ يجب أن نعود ونكرر؛ يجب أن نحذر من أفكار أهل الباطل التي تريد أن تشوش لنا حدود الله، وتريد أن تجعل دين الله ألعوبة؛ كل يأتي فيتكلم فيه، وقد ابتليت الأمة فيما مضى واليوم، بأناس شر أنفسهم مستطير، خرجوا على الأمة بأقاويل تهدم الشريعة، فنعوذ بالله من هؤلاء، نعوذ بالله من أن نتعدى حدود الله، نعوذ بالله من أن نكون مستهينين بدين الله.

نسأل الله أن يثبتنا ويزيدنا يقينًا ويحفظنا ويحفظ ذرياتنا وذريات المسلمين ويحسن لنا الخواتيم، اللهم آمين.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.